أبو تمام وشعره

أيها السادة:

أريد الليلة أن أتحدث إليكم عن أبي تمام، والحديث عن أبي تمام ليس سهلًا، وبنوع خاص إذا كان هذا الحديث مقصورًا على ساعة من الزمان.

هو عسير من حيث إننا نجهل أكثر أخبار أبي تمام، فلا نكاد نعرف من أمره شيئًا.

وهو عسير من حيث إن حياة أبي تمام الفنية معقدة شديدة التعقيد، فبظهور أبي تمام يبدأ التعقيد الفني في الشعر العربي.

ومهما يكن رأي الناس في أبي تمام ومن جاء بعده من الشعراء، فليس من شك في أن الذين سبقوا أبا تمام كانت حياتهم أبسط وأدنى إلى السذاجة، وكانت مذاهبهم الفنية يسيرة سهلة، فمن اليسير أن نشخص المذاهب الفنية لأبي نواس أو بشار أو مسلم في ساعة أو ساعتين، فأما إذا أردنا أن نشخص المذاهب الفنية لأبي تمام، فالأمر أصعب وأشق من هذا.

ولنبدأ بما نعرفه من حياة أبي تمام، وأمر أبي تمام كأمر الكثيرين من الشعراء المتقدمين، فالرواة يختلفون في حياة أبي تمام، يختلفون في السنة التي وُلِد فيها، ويختلفون في المكان الذي وُلِد فيه، وفي اسمه ونسبه، كما يختلفون في السنة التي مات فيها.

مولده

فصاحب الأغاني يحدثنا أنه وُلِد في «منبج» أو في قرية من قرى «منبج» في شمال «سوريا»، ويزعم غيره أنه وُلِد في قرية من قرى دمشق.

وهم يختلفون في السنة التي ولد فيها، فيقول بعضهم إنه وُلِد سنة ثمانين ومائة، ويقول بعضهم إنه وُلِد سنة اثنتين وسبعين ومائة، وأكثرهم يرجح أنه وُلِد سنة ثمان وثمانين ومائة، وبعضهم يروي عن أبي تمام نفسه أنه وُلِد سنة تسعين ومائة.[١]

نسبه

أما نسبه فالخلاف فيه أعظم من هذا جدًّا، فنحن نعرفه أنه أبو تمام حبيب بن أوس الطائي. وهو يتحدث بأنه طائي ويفخر بهذا، فهو إذا ما مدح أحمد بن أبي دواد، وزير المعتصم وزعيم المعتزلة في عصره، فاخره وتحدث كما يتحدث الند إلى الند، فزعم في القصيدة التي أولها:

أرأيت أي سوالف وخُدودِ عنَّت لنا بين اللِّوى فزرُودِ

إن مكانه من أحمد مكان الرجل السريِّ الذي يستطيع أن يساميه، وإن القبيلتين طيئ وإياد تتقاربان وتشتركان في المجد، فلطيئ حاتمها، ولإياد كعب، ثم يقول إن كعبًا وحاتمًا لم يلقيا من الجود مثل ما لقيت.

وفي غير هذه القصيدة يتحدث أبو تمام كثيرًا عن طيئ، ويفاخر بمكانه منها، ولكن قومًا كثيرين من الذين عاصروا أبا تمام وكتبوا عنه بعد موته يتحدثون أن أبا تمام لم يكن من طيئ في شيء، بل لم يكن من العرب في شيء، وأوس هذا اسم صنعه أبو تمام وحرفه عن اسم أبيه، وهو في بعض كتب التاريخ العربي «تدوس»[٢] وفي الطبعة الأخيرة لتاريخ بغداد «بدوس» وصواب الاسم تيودوس، وهو اسم يوناني، ويحدثنا الرواة

[١] انظر ابن خلكان (ج١، ص١٥٠).

[٢] دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أبي تمام.

القدماء — وأكثر الذين يحدثوننا قد عاصروا أبا تمام أو عاشوا بعد موته بقليل — أن تيودوس هذا كان نصرانيًّا يبيع الخمر في دمشق، وأن ابنه نشأ في حجره نشأة نصرانية، ولكنه أسلم وترك دمشق وذهب إلى مصر فأقام فيها فترة.

فنحن إذن بين مذهبين: قوم يرون أن أبا تمام نصراني الأصل يدل اسم أبيه على أنه رومي، وآخرون ومنهم صاحب الأغاني يرون أنه عربي من طيئ صليبة، من صميم طيئ وليس منها بالولاء، والذين يزعمون أن أبا تمام ليس من طيئ في شيء يحتجون بحجة لا تخلو من قوة، فالنسب الذي يصل بينه وبين طيئ لا يعد إلا عشرة رجال على أنه ينبغي أن يكون بينه وبين طيئ ستة عشر رجلًا لا عشرة رجال فقط،[٣] فهؤلاء الستة قد سقطوا، ومن الغريب أن يسقطوا؛ لأن الحرص على الأنساب في عصره كان شديدًا جدًّا، ويُرجَّح أن هذا النسب قد صُنِع على الرغم مما يدعيه أبو تمام مما هو ملحوظ في هذين البيتين في قوله:

لئن أُلبِست فيه المصيبةَ طيئٌ فما عريت منها تميمٌ ولا بكرُ
كذلك ما ننفك نفقد هالكًا يشاركنا في فقده البدو والحضرُ

من القصيدة التي رثى بها محمد بن حميد الطوسي، والتي مطلعها:

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذرُ

فغريب إذن أن يكون لأبي تمام نسب قصير، في حين نرى لمعاصريه نسبًا طويلًا وأن يكون الفرق ستة أشخاص لا شخصين ولا ثلاثة.

والمرجح أن هذا النسب قد صُنِع، وأن الذي صنعه قد تعجل صنعته، ولم يكن على علم باختراع الأنساب.

[٣] راجع ابن خلكان (ج١ ص١٥٠).

موته

أما موت أبي تمام فيختلفون فيه أيضًا، ولكن اختلافهم فيه ليس شديدًا كاختلافهم في مولده، فبعضهم يرى أنه مات سنة ثمان وعشرين ومائتين، وبعضهم يرى أنه مات سنة ثلاثين ومائتين، أو إحدى وثلاثين، أو اثنتين وثلاثين.[٤]

والشيء الذي يظهر أنه لا يصح موضعًا للشك أن أبا تمام لم يعمر طويلًا، ولعله لم يتجاوز الأربعين إلا قليلًا، فهو إذن وصل إلى ما وصل إليه من هذه المكانة الشعرية ولما يبلغ من السن ما بلغه الشعراء النابهون الذين نعرفهم في تاريخ الأدب العربي.

أبو تمام بين مصر والشام

هناك مسألة يختلف فيها المحدثون في هذه الأيام، وبنوع خاص منذ تُوفِّي شوقي وحافظ: لأي البلاد أبو تمام مدين بشعره؟ ألمصر أم للشام؟ يرى قوم أنه شامي، ويرى آخرون أنه مصري، وأولئك وهؤلاء يأتون بحجج لا تكاد تنتهي، ولكنَّ أبا تمام نفسه يظهر أنه لم يكن يرى نفسه مصريًّا ولا شاميًّا، وأنه كان يرى نفسه عربيًّا مواطنًا لهذه الجماعة الكبرى، جماعة الدولة الإسلامية؛ ذلك لأن هذا العصر الذي نتحدث عنه لم تكن قد عادت فيه إلى الظهور فكرة الوطنيات القومية، التي ظهرت في أواخر القرن الثالث الهجري وقويت في أوائل القرن الرابع، وإنما نحن في عصر كانت فيه الدولة الإسلامية وطنًا واحدًا، وربما كان في هذا البيت من شعر أبي تمام أصدق تصوير لهذه الفكرة، أو لهذا الرأي الذي كان شائعًا في ذلك الحين:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرَّقمتين وبالفسطاط إخواني

فأهله في الشام وهواه في بغداد، وهو بالرقمتين، وإخوانه بمصر، ثم يقول:

وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تبلِّغني أقصى خراسان

[٤] راجع في هذا أيضًا ابن خلكان (ج١، ص١٥٠).

فهو إذن رجل لا يرى لنفسه وطنًا خاصًّا، وإنما وطنه كما يقول:

خليفة الخضر من يربع على وطن في بلدة فظهور العيس أوطاني

وطنه إذن ظهور المطايا لا مصر ولا الشام ولا العراق ولا أي بلد آخر، وقد يُخيَّل إلى بعض الناس أن هذا كلام شعراء ولكن الواقع أن هذا العصر كان مركز الثقافة والحضارة فيه في العراق، وكانت القومية الإسلامية العامة تتركز في العراق وفي مدينة بغداد خاصة، ومهما يكن الوطن الذي وُلِد فيه أبو تمام وعاش وتعلم تعليمه الأول، فالوطن العقلي الأول إنما هو العراق: البصرة والكوفة، ومدينة بغداد بنوع خاص.

إذن فلتختلف مصر والشام في أبي تمام، فلن يجدي عليهما هذا الخلاف شيئًا، فليس أبو تمام مصريًّا ولا شاميًّا، ولا يدين بشعره لمصر ولا للشام، وإنما يدين بشعره قبل كل شيء لبغداد.

من صفات أبي تمام

أخص ما نعرفه من أمر أبي تمام خصال: أولًا ذكاء حاد جدًّا لم يكن يُعرَف لشاعر من الشعراء الذين عاصروه على الأقل، فقد كان أبو تمام يحس الشيء قبل أن يقع، وإذا تحدث إليه الناس لم يمهلهم حتى يتموا حديثهم، وإنما يكفي أن يبدأ أحدهم الكلام، فإذا أبو تمام قد فهم عنه ما يريد ثم أتمه هو.

وكان أبو تمام حاضر البديهة حضورًا غريبًا جدًّا، كان مفحمًا للذين يخاصمونه، إلا أن يخاصم شاعرًا من الشعراء أو يهاجيه، فإنه لم يكن هجَّاء، فهم يتحدثون أن عبد الصمد بن المعذل غلبه في الهجاء، وأظنكم قرأتم قصته عندما لقيه أبو العميْثَل في قصر عبد الله بن طاهر في خراسان، وقرأ مطلع قصيدته المشهورة:

هُن عوادي يوسف وصواحبه فعزمًا فقدمًا أدرك النُجح طالبه

وأظنكم توافقونني على أن هذا المطلع غريب، وأنَّ فهمه ليس بالشيء اليسير.

وأظنكم سمعتم أن أبا العميْثَل قال له: لمَ لا تقول ما يُفهَم؟ فأجابه: ولمَ لا تفهم ما يُقال؟

وتذكرون قصته حينما مدح أحمد بن المعتصم بسينيته المشهورة، وسمع الكندي الفيلسوف قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال له يعقوب الكندي: الأمير فوق ما ذكرت. فقال أبو تمام:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلًا شرودًا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلًا من المشكاة والنِّبراس

ثم لما أتم قصيدته وأخذت منه لم يوجد فيها هذان البيتان، وهذا يدل على أن اعتراض الكندي هو الذي أملاهما عليه بديهة، فقد كان ذكاء أبي تمام وحدَّة ذهنه شيئًا لم ينكره أحد من الذين عاصروه.

إلى جانب هذا الذكاء كان أبو تمام حاد الشعور وكان يحس الأشياء حسًّا سريعًا، ويتأثر بها تأثُّرًا عميقًا، ثم لم يكن ذكاؤه يمتاز بهذه الحدة فحسب، وإنما كان يمتاز بشيء من العمق لم يكن لغيره من الشعراء، فأبو تمام لم يكن كغيره إذا تعرض لشيء أخذ منه ما يبدو أخذًا سريعًا، ولكنه كان إذا تعرض لمعنى من المعاني تعمقه، وكان هذا التعمق من مزايا أبي تمام ومن عيوبه في وقت واحد. من مزاياه؛ لأنه من أظهر الدلائل على قوة العقل، ومن أحسن الوسائل لفهم الأشياء ومن أقوم الطرق التي تحول بين الإنسان وبين الخطأ وفي الفهم وفي التقدير، ولكنه في الوقت نفسه كان يضطره إلى ألوان من الإغراب في المعاني وفي الألفاظ أيضًا، فكان يصل إلى أشياء لم يتعود الناس أن يروها، ولا أن يصلوا إليها، كان يدهش الناس بما يظهر من هذه المعاني المختلفة، ثم كانت تعوزه اللغة أيضًا.

كان الناس قد تعوَّدوا أن يدلوا باللغة على معانٍ قريبة لا سيما في الشعر، وكانوا قد ألفوا — ولا سيما في هذا العصر — أن يجدوا التعمق والتقصي وتخير الألفاظ والمعاني الجديدة عند الفلاسفة وعند المتكلمين، فلما رأوه عند شاعر كأبي تمام يجد من اللغة مشقة، فيتكلف بعض الغريب أو يحمِّل الألفاظ أكثر مما تحمل، وجدوا في ذلك حرجًا ومشقة؛ ولذلك أنكروا على أبي تمام هذا الإغراب، وهذا التكلف في التعبير، فقد كان إذن هذا الذكاء الحاد مصدر مزية ومصدر عيب يأخذون به أبا تمام.

ثم مزية أخرى لأبي تمام يشاركه فيها الشعراء عادة، ولكنَّ أبا تمام تفوق فيها تفوقًا ظاهرًا، وهي عنايته الغريبة بشعر الشعراء الذين سبقوه، ولن نجد شاعرًا غيره خليقًا بهذا الاسم يستطيع أن يكون شاعرًا حتى يحفظ كثيرًا من الشعر، يقرأ أولًا، ثم يستظهر بعد ذلك، والرواة يحدثوننا بالأعاجيب عن أبي نواس وخَلَف الأحمر، وقد كان خلف شاعرًا وراوية في وقت واحد.

ولكن هناك شيئًا يمتاز به أبو تمام، فهو لم يكن حافظًا للشعر أو راوية له، كأبي نواس، ولم يكن راوية متكلِّفًا للرواية والانتحال كخَلَف، ولكنه كان حافظًا وكان كثير النظر في الشعر، ميَّالًا إلى الاختيار منه، لم يكن إذن يحفظ ويكتفي بالرواية، وإنما كان يعاشر الشعراء معاشرة متصلة، يقرؤهم ويطيل النظر فيهم، ويدل على قراءته لهم هذا الاختيار الذي كان يختاره في كتب يذيعها بين الناس.

كتب أبي تمام

ولأبي تمام كتب كثيرة — أظنها ستة — كلها مختارات، فمنها الحماسة، واختيار من شعراء الفحول، واختيار من شعراء القبائل، واختيار من شعراء المحدثين.

تحدثنا الأخبار أن أبا تمام قد اختار كل هذه الكتب لأنه اضطر إلى البقاء في همذان، فقد حال الثلج بينه وبين المضي في سفره، فاضطر إلى البقاء وعكف على خزانة للكتب، فأنفق وقته في تصنيف ما ظهر له من المخْتارات، ولكن هذا غير ممكن وغير معقول، فقد كانت إقامته رهنَ زوال الثلج، وهذا لا يتجاوز الأشهر القليلة، ومن المستحيل أن يصدق أنه قد اختار هذه الكتب في شهرين أو ثلاثة.

ما قيل في نقد أبي تمام

كان أبو تمام إذن متصلًا بالشعراء، وهذه المرافقة المتصلة بالشعراء استغلها خصوم أبي تمام في نقده فوسموه بشيئين: زعم الآمدي أن أبا تمام كان كثير السرقات، ومن قبل الآمدي زعم دِعْبل — وكان مخاصمًا لأبي تمام — مثل هذا الزعم.

واتهم أبو تمام بوجه عام بأنه كان يسرق فيسرف في السرقة، وأراد الآمدي أن يعلل فزعم أنه كان يُكثر من القراءة والحفظ، وكان يتخير وكان يتعمد بهذا التخير أن يظهر للناس ما هو مألوف من الشعر ليصرفهم بهذا المختار عن جيد الشعر وغريبه، وليستبد

بعد ذلك بهذا الجيد والغريب، يستغله كما يشاء ويسرق منه ما يشاء، فانظروا إلى هذا الكلام كيف تسيغه العقول؟

والعيب الآخر الذي وصموا به أبا تمام — لكثرة معاشرته الشعراء — أن هذه المعاشرة وهذه القراءة قد حببت إليه الغريب، وحملته على أن يكلف به، وأن يتميز به من غيره من الشعراء.

ومما لا شك فيه أن كثرة قراءة أبي تمام للشعر قد ملأت حافظته وخياله وعقله بالمعاني والألفاظ التي استعملها الشعراء.

فليس غريبًا إذن أن تدخل في شعره هذه المعاني، وأن يغلب عليه بعض ألفاظ الشعراء، ولا سيما الغريب، دون أن يكون أبو تمام قد تعمد إدخال هذه الألفاظ وهذه المعاني في شعره، فأبو تمام قد تأثر من غير شك بما قرأ من الشعر القديم والأدب القديم، ولكن هذا شيء، وأن يكون أبو تمام لصًّا قد سرق من شعر القدماء شيء آخر.

تنقلات أبي تمام

من الأشياء التي لا بد من ملاحظتها، عندما نريد أن نشخص أبا تمام، هذه السياحة المتصلة، فأبو تمام قد وُلِد في دمشق، وجاء بعد ذلك إلى مصر وهو غلام، فأقام بها خمس سنين، ويقال إنه كان يسقي الماء في المسجد الجامع، ومهما يكن من شيء فقد جلس أبو تمام إلى العلماء وتعلم عليهم، وقال الشعر في مصر، وقال الشعر في الشام قبل أن يذهب إلى العراق، وفي بغداد اتصل بالمعتصم والواثق وأحمد بن المعتصم، ثم اتصل بالوزراء أحمد بن أبي داود ومحمد بن عبد الملك الزيات، واتصل بجماعة من كبار الكتَّاب المشهورين كالحسن بن وهب والحسن بن رجاء وغيرهم، ثم ترك بغداد عدة سنوات، ورحل عنها إلى أطراف الأقطار الإسلامية، فذهب إلى أرمينية ومدح خالد بن يزيد، وإلى الجزيرة ومدح فيها محمد بن يوسف الطائي، وذهب إلى خراسان ومدح فيها عبد الله بن طاهر، ورحل إلى الحجاز وعاد إلى بغداد، وتنقل كل هذا التنقل، فهو كما سمعتم لم يكن له وطن بعينه، وإنما كانت أوطانه ظهور العيس.

ومما لا شك فيه أن هذا السفر المتصل إذا صادف عقلًا كعقل أبي تمام، وقلبًا كقلبه، وشعورًا رقيقًا حادًّا كشعوره، ترك في هذا العقل وفي هذا القلب والشعور أشد الأثر وأحده، وظهر هذا كله في شعره.

أبو تمام والشعراء

معروف أن أبا تمام قد أخمل كثيرًا من الشعراء الذين عاصروه، وأنه كما يقول الرواة قطع أرزاقهم، فلم يستطع أحد منهم أن يكسب درهمًا، فلما مات تقسم الشعراء الجوائز بعده، وفي هذا الكلام بالطبع غلو كثير، فقد كان يعاصر أبا تمام جماعة من الشعراء النابهين: كان يعاصره البُحتري ودعبل ومسلم بن الوليد وإبراهيم بن العباس، وكان يعاصره جماعة من الوزراء والكتاب الشعراء كمحمد بن عبد الملك الزيات، ولكن مما لا شك فيه أن أبا تمام كان في عصره، وبنوع خاص في العشرين سنة الأخيرة، كان أظهر الشعراء غير منازع، هذا الظهور الذي ملأ البلاد الإسلامية باسم أبي تمام وشعره الذي أكره الشعراء على أن يعترفوا بزعامته مع أنهم تعودوا أن لا يعترفوا لواحد منهم بالفضل، إلا أن يُكرَهوا على ذلك إكراهًا، هذا الظهور أكثر حُسَّاد أبي تمام، ولعلكم تذكرون أنه عندما أنشد هذه القصيدة:

هنَّ عوادي يوسف وصواحبه فعزمًا فقدمًا أدرك النُّجح طالبه

فُتِن بها الشعراء الذين كانوا في قصر عبد الله بن طاهر، حتى إن واحدًا منهم نزل لأبي تمام عن جائزته التي كان الأمير قد وعده بها.

ليس غريبًا إذن أن يكثر حساد أبي تمام وخصومه لا لشيء غير هذا التفوق الذي لم يُسبَق إليه، فأبو نواس على أنه كان زعيمًا في عصره لم تسلم له الزعامة، بل كان يناوئه فيها الشعراء، منهم مسلم بن الوليد، والشعراء في العصر الأول لم تسلم لواحد منهم الزعامة، فلم يستطع الأخطل ولا الفرزدق ولا جرير أن يستقل بها، أما أبو تمام فليس من شك أنه قد انفرد بالزعامة في وقت من الأوقات، حتى اعترف له بها خصومه، فالبحتري كان يرى نفسه تلميذًا لأبي تمام، وكان يقول: إنما أكلت الخبز بفضل أبي تمام.

فأبو تمام أول شاعر إسلامي استطاع أن يفرض زعامته فرضًا، وأن يعترف له بها الناس جميعًا، دون أن يزاحمه فيها أحد مزاحمةً جدية.

إلى جانب هذا، الطبيعة الفنية لأبي تمام التي كان من شأنها أن تثير الخصومات، وأن تصرف عددًا كبيرًا عن أبي تمام، فكان علماء اللغة والنحو والأدباء المحافظون يكرهون شعر أبي تمام ويصدون عنه، وكان أشدهم في ذلك ابنُ الأعرابي، فقد كان

شديد التعصب على أبي تمام، وكان يكره أن يروي شعره أو يذكر اسمه. ويُروَى أن بعض كبار الكتاب وكل إلى ابن الأعرابي أن يؤدب ابنه، فجاء هذا الشاب بأرجوزة وأنشدها بين يدي ابن الأعرابي، فأعجب بها وطلب إلى الشاب أن يكتبها، فسأله الشاب: أتستجيد هذا الشعر؟ قال: ما رأيت شعرًا كهذا، فقال الشاب: إنه لأبي تمام، فقال ابن الأعرابي: خرق! خرق!

ويقال إنه ذات يوم مر بعالم فسأله: أين تريد؟ فقال ابن الأعرابي:

نرمي بأشباحنا إلى ملك نأخذ من ماله ومن أدبه

وهذا الشعر لأبي تمام ويقول الرواة: لو عرف ابن الأعرابي ذلك ما تمثل به.

والأعراب الذين كانوا يكثرون في بغداد وفي مدن العراق، والذين كانوا يكثرون في قصور الأمراء والذين كانوا يفدون عمدًا إلى هذه الأمصار ليروُّوا الناس الشعر ويعيشوا من ذلك، لم يكونوا يحبون شعر أبي تمام، وقال له بعضهم: يا أبا تمام، إنك تنشئ القصيدة فإذا بها بحر من القاذورات، ثم تلقي فيها بالدُّرة، فمن ذا الذي يغوص على هذه الدرة؟

السبب في بغض المحافظين لأبي تمام

كان أبو تمام مُبغَّضًا إلى المحافظين، وهنا نحتاج إلى أن نتبين السبب الفني الخاص الذي من أجله لم يكن أبو تمام محببًا إلى الذين عاصروه من العلماء ومن الأدباء المحافظين، وهذا شيء آخر غير الحسد والخصومة التي تنشأ عنه.

المتقدمون متفقون على أن أبا تمام كان تلميذًا في البديع لمسلم بن الوليد، وأنه أسرف في هذا البديع إسرافًا شديدًا هو الذي جعل شعره بغيضًا إلى الأدباء ونُقَّاد اللغة.

والواقع أن مسلمًا قد سبق أبا تمام إلى البديع، والواقع أيضًا أن مسلمًا لم يبتكر البديع ابتكارًا، وأن البديع لم يُستحدَث في العصر العباسي، وإنما البديع فن قديم وُجِد منذ وُجِد الشعر، ومنذ عُنِي الشعراء بهذا الفن، واتخذوه حرفة وصناعة.

هذا النوع قديم تجدونه عند شاعر كزُهير وأوس بن حجر والحطيئة، عند هؤلاء الشعراء الذين كان يسميهم الأصمعي «عبيد الشعر»، والذين لم يكونوا يرسلون الشعر على سجيتهم وإنما كانوا يفكرون ويطيلون التفكر، ويتعمدون الإجادة الفنية فيما

يقولون، كانوا من غير شك قد رسموا لأنفسهم مذهبًا في الفن يعتمدون عليه، وهو العناية بالتشبيه والاستعارة، يستعينون عليهما بالحس أكثر مما يستعينون بالتفكير الخالص، فكان أحدهم إذا أراد أن يأتي بفكرة، أو يصور معنى من المعاني لا يأتي به سهلًا ولا يسيرًا، ولا يأتي به على أنه معنى يتحدث به قلب إلى قلب، أو عقل إلى عقل، وإنما يأتي به في صورة نحسها باللمس أو بالعين أو بالأذن، نحسها على كل حال، ومن هذه الناحية كثر الشعر البديعي، وكثر فيه التشبيه والاستعارة.

ليس هذا الفن عباسيًّا وإنما هو قديم وُجد مع الشعراء، ومع ذلك فليس من شك في أن العصر العباسي قد شهد عناية شديدة جدًّا بالبديع لم تكن موجودة من قبل، حتى لا تكاد تقرأ لمسلم أو أصحابه بيتًا أو بيتين إلا وجدت أمثلة من البديع، وإذن فما كان الشعراء القدماء يتخذونه وسيلة إلى الجمال الفني قد أصبح غاية عند مسلم وأصحابه.

والشعراء أبدًا منقسمون إلى قسمين: إلى هؤلاء الذين يتحدثون إلى النفس في سهولة ويسر لا يتكلفون، وإنما يلتمسون الجمال في مسايرة الطبيعة، وشعراء آخرون يجدون في هذه العناية باللفظ وفي تكلف هذه الألوان من البديع، فهم لا يعتمدون في الشعر على التحدث إلى النفوس والشعور فحسب، وإنما يريدون التأثير الموسيقي في النفس والأذن أيضًا.

هذا النوع من الانقسام موجود دائمًا في العصور القديمة والحديثة، وفي الأمم المختلفة، وهو قد وُجِد عندنا كما وُجِد عند غيرنا، أما الشعراء الجاهليون والإسلاميون فمنهم من عُني بهذه الموسيقى على أنها وسيلة من وسائل إظهار الجمال الفني، ومنهم من لم تكن عنايته بها شديدة، وإنما كان يلم بها إلمامًا إن عرضت له، ووُجِد أيضًا قوم أسرفوا في هذه العناية حتى اتخذوها مثلًا أعلى للأدب، وصورة أخيرة للجمال الفني، ومسلم هو فيما يظهر أول من نلاحظ عنده هذه العناية، ولكن الواقع أن الفرق عظيم جدًّا بين العناية بالبديع عند مسلم وعند أبي تمام.

فشعر مسلم حسن الوقع في الأذن بفضل الموسيقى التي تأتيه من البديع، ودلالته على المعاني قريبة جدًّا، لا تجد شيئًا من الغرابة فيه، وكل ما تحس أن الشاعر قد تكلفه هو أن هذا الشاعر قد لاءم بين المعاني وبين الألفاظ، وجعل بينهما هذه العلاقة الموسيقية الجميلة.

أما أبو تمام فشيء آخر يُعنَى بالموسيقى وجمال اللفظ، ولكنه يتجاوز هذه العناية إلى عناية أخرى بالمعنى، من هنا يشتد أبو تمام في الدقة حتى لا يحس وحتى لا يرى، وحتى لا يفهم، وحتى يفسد الموسيقى أحيانًا؛ لأن أبا تمام كان يحس معناه إحساسًا قويًّا، ولكنه كان في الوقت نفسه عاجزًا عن أن يشركنا معه في هذا الحس، وأبو تمام مشارك لمسلم في عنايته بالألفاظ، ولكن هذه الألفاظ الضخمة الجزلة إن واتته في كثير من الأحيان فهي تعجز في كثير من الأحيان أيضًا، وهذا التكلف بالمعاني الغريبة هو الذي أثار الخصوم على أبي تمام، فمن الأبيات التي أُنكِرت على أبي تمام:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيه ما غاليتُ في أنه بُرد

هذا البيت لم يفهمه المتقدمون؛ لأنهم لم يألفوا هذه الصورة، صورة الحلم بالكفين وتشبيهه بالبرد، وإنما كانوا يشبهون الحلم بالجبال في مثل هذا البيت:

أحلامنا تزن الجبالَ رزانة وتخالنا جنًّا إذا ما نجهل

فالرجل الحليم هو الثقيل، فأما هذا الحلم الذي يوصف بأنه رقيق الحواشي، فهذا شيء لم تعرفه العرب، ومن المحقق أن هذا البيت قد أضحك الناس منذ سمعوه إلى اليوم بهذه الصورة الغريبة، وهي الحلم في الكفين، وكيف يكون الحلم في الكفين؟!

ولكن هؤلاء النقاد لم يقدروا الفرق البعيد جدًّا بين عقلية أبي تمام وعقلية الشعراء المتقدمين، والذين قلدوهم من المحدثين والذين شبهوا الحلم بالجبال، فأبو تمام رجل حضري، وهو إذا مدح فإنما يمدح الوزراء والكتَّاب، والخلفاء المترفين، وهو إذا وصف الخلفاء بالتأني والرزانة لم يستحسن منه أن يجعل لهم رزانة هؤلاء الأعراب التي تزن الجبال، لم يكن أحدهم يحب أن يوصف بضخامة الرأس وثقل السمع كما كان يستحسن من قيس بن عاصم، أو من معاوية بن أبي سفيان، وإنما كان العصر عصرًا آخر، وكانت لأهله حضارة، هي على أقل تقدير شديدة الابتسام من الناحية المادية، حضارة أرستقراطية مترفة تظهر فيها الدعة.

هذه الحضارة التي يعبر عنها الفرنسيون Les bonnes Manières.

وهي الحضارة التي تخلب بكثرة ما فيها من اليسر والابتسام؛ فالرجل الحليم إذن ليس هو الرجل الوقور الثقيل الذي يشبه بالجبل، وإنما هو الرجل الذي يلقى كبار

الحوادث مبتسمًا، والذي إذا تحدث إليك عنها أعجبك حديثه رقة وظرفًا، على فداحة الحوادث، وتكاثف الخطوب، هو هذا الرجل المترف المتمدين، إن صح هذا التعبير، وإذن فالحلم في بغداد وفي القرن الثالث للهجرة غير الحلم في البصرة في القرن الأول للهجرة، فليس غريبًا أن يكون حلم المتحضرين في بغداد رقيق الحواشي، أما «لو أن حلمه بكفيه» فهذا غريب، ولكن أي قيمة للشاعر المبتكر إذا لم يستطع أن يخترع لك من الصور ما يبهرك ويضطرك إلى أن تعجب بهذه الصور الجديدة؟!

كنت أقرأ اليوم في كتاب لبول فاليري Paul Valery عن مالارميه Mallarmé.

فإذا بول فاليري عندما أراد أن يحدد الشعر يقول: «إن الشعر هو الكلام الذي يراد منه أن يحتمل من المعاني ومن الموسيقى أكثر مما يحتمل الكلام العادي، والشاعر المجيد حقًّا يمتاز من غير المجيد بأنه إذا تحدث إليك لم يمكنك من أن تسير معه كما تسير مع نفسك، وإنما يضطرك أن تفكر، وأن تجهد نفسك في أن تفهمه وتحسه وتشعر معه.»

فأبو تمام هو هذا الشاعر الذي يأتيك بأشياء لا تكاد تسمعها حتى تأخذك الدهشة، وإذا أنت قد خرجت عن طورك، واضطررت إلى أن تفكر مع الشاعر، وإلى أن تسير معه، فإذا هو يسرك حينًا ويحزنك حينًا آخر.

خلاصة ما قيل في نقد أبي تمام

وكل النقد الذي وُجِّه إلى أبي تمام سواء في كتاب «الموازنة» أم في غيره إنما يقوم على هاتين القاعدتين؛ الأولى: أن أبا تمام يخالف قواعد اللغة؛ لأنه متعمق في المعاني، فيضطره هذا التعمق إلى أن يحمل اللغة أكثر مما تُطيق، ولا يجوز للمحدثين أن يتصرفوا في اللغة، وإذا كان هذا الكلام سائغًا في الكوفة والبصرة في القرن الأول والثاني، فأظننا قد أصبحنا لا نسيغه في القرن الثالث، وأظننا أصبحنا نعتقد أن اللغة ملك لكل شاعر وكل كاتب، فهو إذن يجب أن يصرفها لا أن تصرفه.

والقاعدة الثانية التي كان النقاد يصدرون عنها في نقد أبي تمام، أنه كان يأتي بأشياء لم تألفها العرب في شعرها، فإذا وصف الحلم وصفه برقة الحاشية، وإذا أراد أن يصف دقة الخصر قال:

من الغيد لو أن الخلاخل صُورت لها وُشُحًا جارت عليها الخلاخل

وهم ينكرون أن يكون الخلخال وشاحًا، إنما الوشاح شيء والخلخال شيء آخر، والخلخال عندهم شيء ضيق، ويقول الآمدي: إن هذا الجسم الذي يتخذ الخلخال وشاحًا هو أشبه بجسم الجعل.

على هاتين القاعدتين قام نقد أبي تمام، ولكنكم توافقونني على أن هاتين القاعدتين إنْ قَبِلهما الأدباء المحافظون والنحويون وأصحاب اللغة في بغداد والبصرة والكوفة في القرون الأولى، فنحن الآن لا نقبلهما بهذا اليسر الذي كان يقبلهما به النقاد؛ ولهذا أعتقد أن أبا تمام رجل كان قد عاش في عصر لم يكن من الحسن أن يوجد فيه، وربما كان قد سبق العصر الذي كان ينبغي أن يوجد فيه، وربما كان شأنه في ذلك شأن شاعرين آخرين هما عنوان النبوغ الأدبي في الشعر؛ وهما: المتنبي، وأبو العلاء.

نستطيع نحن الآن أن نفهم أكثر مما كان يفهم المتقدمون بما وصلنا إليه من ثقافتنا الجديدة، ورقينا العقلي، وأن نسيغ هذا الشاعر ونجاريه في معانيه، وفي هذه اللغة التي كان يُخْضعها ولا يَخضع لها، والتي كانت خادمًا لأبي تمام دون أن يكون أبو تمام خادمًا لها، نحن الذين يستطيعون أن يفهموا أبا تمام وأن يضعوه حيث كان ينبغي أن يوضع.

ومن أخص العيوب التي يؤخذ بها النقاد الذين نقدوا أبا تمام والبحتري والمتنبي أنكم لا تجدون أحدًا من هؤلاء النقاد ينقد القصيدة من حيث هي قصيدة، فهم إذا قرءوا أجمل قصائد أبي تمام والمتنبي والبحتري لا ينظرون إليها جملة: كيف استقامت ألفاظها ومعانيها وأسلوبها، وإنما يقفون عند البيت أو البيتين: أأجاد الشاعر في هذا التشبيه أم لم يجد؟ أوُفِّق في هذا التعبير أم لم يُوفَّق؟ وما هكذا نفهم نحن النقد الآن، وما هكذا نتصور المثل الأعلى للنقد الأدبي.

وكنت أتمنى أن أجد من الوقت ما يمكنني من أن أقف معكم وقفة قصيرة عند قصيدة من قصائد أبي تمام لأتبين معكم أنه صاحب تعمق وتجويد، وقد أعود إلى أبي تمام مرة أخرى عندما أتحدث إليكم عن البحتري.

قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم وفتح عمورية

ولكني أحب أن تسمعوا هذه القصيدة في مدح المعتصم وفتح عمورية لتجدوا فيها روح أبي تمام ماثلًا قويًّا:

السيف أصدق أنباءً من الكتبِ ... في حده الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيض الصَّفائح لا سُود الصحائف في ... مُتونهن جلاء الشكِّ والرِّيبِ
والعلم في شُهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشُّهبِ
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زُخرف فيها ومن كذبِ؟
تخرُّصًا وأحاديثًا ملفَّقة ... ليست بنبع إذا عُدَّت ولا غربِ[٥]
عجائبًا زعموا الأيام مُجفلة ... عنهن في صفر الأصفار أو رجبِ
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذَّنبِ
وصيَّروا الأبرج العليا مرتبة ... ما كان مُنقلبًا أو غير مُنقلبِ
يقضون بالأمر عنها وهي غافلةٌ ... ما دار في فلك منها وفي قُطبِ
لو بينت قطُّ أمرًا قبل موقعه ... لم يخفَ ما حل بالأوثان والصُّلبِ
فتح الفتوح تعالى أن يُحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطبِ
فتح تفتَّح أبواب السماء له ... وتبرز الأرضُ في أثوابها القُشبِ
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حُفلًا معسولة الحلبِ
أبقيت جد بني الإسلام في صَعَد ... والمشركين ودار الشرك في صببِ
أمٌّ لهم لو رجوا أن تُفتدى جعلوا ... فداءها كلَّ أم برَّة وأبِ
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها ... كسرى وصدَّت صُدودًا عن أبي كربِ
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد ... شابت نواصي الليالي وهي لم تشبِ
بكر فما افترعتها كفُّ حادثة ... ولا ترقَّت إليها همة النُوبِ
حتى إذا مخض الله السنين لها ... مخْضَ الحليبة كانت زُبدة الحقبِ
أتتهم الكربة السوداء سادرة ... منها، وكان اسمها فرَّاجة الكُربِ

[٥] النبع: شجر تُعمَل منه القسي، ينبت في قنة الجبل، والغرب: شجر ضخم شائك ينبت في البوادي.

جرى لها الفأل نحسًا يوم أنقرة ... إذ غودرت وحشة الساحات والرحبِ
لما رأت أختها بالأمس قد خربت ... كان الخرابُ لها أعدى من الجربِ
كم بين حيطانها من فارس بطل ... قاني الذوائب من آني دم سربِ
بسنة السيف والخطيِّ من دمه ... لا سنة الدين والإسلام مُختضبِ
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يومًا ذليل الصخر والخشبِ
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضُحى ... يشله وسطها صُبح من اللهبِ
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغبِ
ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دُخان في ضُحى شحبِ
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت ... والشمسُ واجبة من ذا ولم تجبِ
تصرح الدهر تصريح الغمام لها ... عن يوم هيجاء منها طاهر جُنُبِ
لم تطلع الشمسُ فيه يوم ذاك على ... بانٍ بأهل ولم تغرب على عزبِ
ما ربع مية معمورًا يُطيف به ... غيلان أبهى رُبى من ربعها الخربِ[٦]
ولا الخدود وإن أُدمِين من خجل ... أشهى إلى ناظري من خدها التربِ
سماجة غنيت منا العيون بها ... عن كل حسن بدا أو منظر عجبِ
وحسن منقلب تبدو عواقبه ... جاءت بشاشته عن سوء منقلبِ
لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت ... له المنية بين السُّمر والقُضبِ
تدبير معتصم، بالله مُنتقم ... لله مرتقب، في الله مرتغبِ
ومطعم النصل لم تُكهَم أسنته ... يومًا ولا حُجِبت عن روح مُحتجبِ
لم يغزُ قومًا ولم ينهض إلى بلد ... إلا تقدَّمه جيش من الرعبِ
لو لم يُقد جحفلًا يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها في جحفل لجبِ
رمى بك الله بُرجيها فهدَّمها ... ولو رمى بك غير الله لم يُصبِ
من بعد ما أشَّبوها واثقين بها ... والله مفتاح باب المعقل الأشبِ
وقال ذو أمرهم لا مرتع صدر ... للسارحين وليس الورد من كثبِ
أمانيًا سلبتهم نُجح هاجسها ... ظبا السيوف وأطراف القنا السلبِ
إنَّ الحمَامين من بيض ومن سمر ... دلُّوا الحياتين من ماء ومن عشبِ

[٦] غيلان: هو غيلان بن عقبة؛ ذو الرمة.

لبيت صوتًا زَبَطْريًّا هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الحرَّد العربِ[٧]
عداك حر الثغور المستضامة عن ... برد الثغور وعن سلسالها الحصبِ
أجبته معلنًا بالسيف منصلتًا ... ولو أجبت بغير السيف لم تُجبِ
حتى تركت عمود الشرك منقعًرا ... ولم تعرج على الأوتاد والطنبِ
لما رأى الحرب رأي العين توفلس ... والحرب مشتقة المعنى من الحربِ
غدًا يصرف بالأموال جزيتها ... فعزه البحر ذو التيار والعببِ
هيهات زعزعت الأرض الوقور به ... عن غزو محتسب لا غزو مكتسبِ
لم ينفق الذهب المربى بكثرته ... على الحصى وبه فقر إلى الذهبِ
إن الأسود أسود الغاب همتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلبِ
ولى وقد ألجم الخطِّي منطقه ... بسكتةٍ تحتها الأحشاء في صخبِ
أحذى قرابينه صرف الردى ومضى ... يحتث أنجى مطاياه من الهربِ
موكلًا بيفاع الأرض يشرفه ... من خفة الخوف لا من خفة الطربِ
إن يعدُ من حرها عدو الظليم فقد ... أوسعت جاحمها من كثرة الحطبِ
تسعون ألفًا كآساد الشرى نضجت ... جلوُدهم قبل نضج التين والعنبِ
يا ربُ حوباء لما اجتث دابرهم ... طابت ولو ضُمخت بالمسك لم تطبِ
ومغضب رجعت بيضُ السيوف به ... حي الرضا من رداهم ميت الغضبِ
والحرب قائمة في مأزق لجب ... تجثو القيام به صغرًا على الركبِ
كم نِيلَ تحت سناها من سنا قمر ... وتحت عارضها من عارض شنبِ
كم كان في قطع أسباب الرقاب بها ... إلى المخدرة العذراء من سببِ
كم أحرزت قُضب الهندي مصلتة ... تهتز من قضب تهتز في كُثبِ
بيض إذا انتُضيت من حجبها رجعت ... أحقَّ بالبيض أبدانًا من الحجبِ
خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسبِ
بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جسر من التعبِ
إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير منقضبِ

[٧] زبطري: منسوب إلى زبطرة، بلد فتحه الروم، فبلغ المعتصم فيما قيل أن امرأة قالت في ذلك اليوم: وا معتصماه. فنُقِل إليه ذلك، وكان في يده قدح فوضعه وأمر بأن يُحفَظ، فلما رجع شرب.

فبين أيامك اللاتي نُصِرْتَ بها وبين أيام بدر أقربُ النسبِ
أبقت بني الأصفر المُصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلَّت أوجه العربِ